

فأحسن تربيته ، وحمله على مطالعة الكتب وجمع إليه المعلمين والأدباء ، يعلمونه ويدارسونه . وأعلقه بصناعة الكتابة ، وشغل في حياة والده مكانه في المدرسة العبرية التي أنشأها يدرّس التلمود ، وكان إلى جانب ذلك جميل الوجه ، حاد الذهن ، « لم يعرف ذل اليهودية ولا قدر الذمة »^(١٥) ، ويزيد ابن ابسام ، في كتابه الذخيرة وشهد أحداث العصر ، ما يمس أخلاقه الخاصة فيقول عنه : إنه كان « غلاماً وضياً ، ومركباً - زعموا - وطياً ، وكان لمن اعتنى يومئذ بالغلان فتنة . حتى كان يقال إنه وإنه » ، ويصفه في مكان آخر صراحة بأنه كان « مأبونا »^(١٦) ، ولم يرد الخبر في مصادر أخرى . فيما أعرف ، غير أن ابن حزم وشهر بالموضوعية ، وبالشجاعة العقلية في إيراد الأخبار ، ولعله نقله عن ابن حيان المؤرخ ، ولم يكن يتردد في ذكر أية معائب ، يذكرها صراحة دون موارد ، وفي جرأة دون تردد^(١٧) .

وقد اصطنع لنفسه و« لم يعرف ذل اليهود ولا قدر الذمة »^(١٨) ، كل ما عرف من الترف على أيامه ، فكسف أهبة الأمير وأخمل أمجاد صنهجة ، فإذا مضى إلى جانب باديس لم يفرق الناس بين الرئيس والمرءوس ولم يعرفوا الأمير من الوزير^(١٩) .
والحق أن باديس مال في البدء إلى علي بن القزويني ، وقال له : التزم خدمة مملكتنا فأنت أحق بها . فأبى ذلك علي ، وأكد عليه يوسف بن صمويل فأطياه بالأموال الجسيمة ، واسترضاه بالكلام المعسول ، يقول له : « ليس أرغب إلا أن أكون عبدك وتربيتك ، ولك الأمر ، وأنا كاتب بين يديك ، وأقوم بنفقتك كلها ، ولو كان أهلك عدد الحصى » ، فطمع عليّ في قوله ، وكلم السلطان في ذلك ، وقال له : « إن أبقيت علي ولد أبي إبراهيم ناصحك ، فأرجو ذلك لولدي من بعدى ، وأنا المشرف عليه » ففعل

(١٥) المرجع السابق ، ص ٤٤٧ .

(١٦) ابن بسام ، الذخيرة في عسان أهل الجزيرة ، القسم الأول ، المجلد الثاني ، ص ٢٦٩ .

(١٧) لمعرفة قيمة كتاب الذخيرة ومصادره ، انظر . د. الطاهر أحمد مكي ، دراسة في مصادر الأدب ، الطبعة السادسة ،

القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٨٣ .

(١٨) الإحاطة ، ج ١ ص ٤٤٧ .

(١٩) الذخيرة ، ص ٢٧٠ .